مجلة الأصالة للدراسات والبحوث
Al Assala Journal for studies & Researches
مجلد 01 عدد 01 سنة 2019
EISSN ..... ISSN 2710-8538

# الفلسفة والدين في فكر الدكتور احمد عروة

د. سهيل سعيود
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية ـقسنطينةـ

**ملخص:**
مع أن الدكتور أحمد عروة لم يشتغل يوما بتدريس الفلسفة، بل إن تخصصه كان بعيدا جدا عن الفلسفة (نعلم أنه عمل أستاذا في الطب الاجتماعي في كلية الطب بجامعة الجزائر، بعد حصوله على دكتوراه في الطب من جامعة مونبولييه الفرنسية، كما عمل في هيئات أخرى متعلقة كلها بالصحة)، إلا أنه كان مسكونا بالأسئلة الفلسفية الكبرى، كما يدل على ذلك كتابه المهم *L'Islam et la science* (1969)، الذي يتحدث فيه بشكل أساسي عن المعرفة الدينية والمعرفة العلمية في «الإيديولوجيا الاسلامية»؛ وهو ما قاده إلى الدخول في سجال فكري وفلسفي مع الفلسفة المادية، كما عبرت عنها الفلسفة الماركسية في تلك الفترة، أي أن سجاله كان، بتعبيرنا المعاصر، مع النزعة الوضعية في الفلسفة، أي مع التصور الوضعي للعلم.

**Abstract :**
Dr. Ahmed Aroua has never been a professor of philosophy, but his specialty has been very far from philosophy (we know that he worked as a professor of social medicine at the Faculty of Medicine at the University of Algiers, after obtaining a doctorate in medicine from the University of Montpellier, But he was haunted by the great philosophical questions, as evidenced by his important book L'Islam et la science (1969), in which he speaks mainly about religious knowledge and scientific knowledge in Islamic ideology; Which led him to engage in an intellectual and philosophical debate with material philosophy, as expressed by Marxist philosophy in that period ,In other words, his record was, in our contemporary expression, the tendency of positivism in philosophy, ie with the positivist perception of science.

كان الدكتور احمد عروة قد حصل على شهادة دكتوراه في الطب من جامعة مونبلييه في عام 1955؛ وفي عام 1982 حصل على شهادة دكتوراه في العلوم الطبية من جامعة الجزائر، ليصبح بعدها استاذا في الطب الاجتماعي في كلية الطب في جامعة الجزائر؛ وفي هذا الاطار، صدر له في سنوات الثمانينيات العديد من الابحاث عن الصحة والبيئة وعن تاريخ الطب عند المسلمين، مع اهتمام خاص بالطب عند ابن سينا. غير ان نشاطه الفكري كان قد بدا قبل ذلك بزمن بعيد، في السنوات الاولى التي اعقبت الاستقلال مباشرة، حيث

صدر له في عام 1969 كتابان اساسيان عن المؤسسة الوطنية للكتاب، هما: *L'Islam et la science*[1] و*L'Islam à la croisée des chemins*[2]، يمثلان، إلى جانب كتابه الآخر *Islam et démocratie*[3]، اهم اسهاماته الفكرية؛ كما صدر له في الفترة نفسها، تقريبا، العديد من الدواوين الشعرية، كلها بالفرنسية. ومعنى ذلك ان المثقف، في فكر وسيرة الدكتور عروة، كان سابقا على الطبيب؛ وبتعبير آخر، كان المثقف احمد عروة سابقا على الدكتور احمد عروة؛ وبتعبير ميشيل فوكو، كان «المثقف الكوني» سابقا على «المثقف الخاص». لكن هذا لا يعني ان «المثقف الخاص» كان سلبيا ازاء «المثقف الكوني»، او هامشيا بالنسبة له، بل كان له في الواقع اكبر الاثر في توجيه «المثقف الكوني»، على مستوى الرؤية كما على مستوى المنهج. من الملاحظات الاولية التي تستدعي الانتباه ايضا، في فكر الدكتور عروة، هو انه كان يكتب باللغة الفرنسية، بل كانت الفرنسية لغة الفكر والكتابة الاساسية عنده، لكن ذلك لم يمنعه من ان يتجه اتجاها دينيا في الفكر والايديولوجيا؛ وهو ما يجعله، على نحو ما، قريبا من مالك بن نبي في الجزائر، الذي كان يصغره بنحو عشرين عاما (ولد الدكتور عروة في عام 1926) وعبد العزيز الحبابي في المغرب، بعيدا جدا عن التوجه العلماني لأركون، جعيط والعروي؛ لكنهم كانوا جميعا، مع اختلافهم في الفكر والايديولوجيا، مثقفين فرانكوفونيين بالدرجة الاولى.

غير ان ما يميز الدكتور عروة، اضافة الى ما سبق، عن هؤلاء المثقفين الفرانكفونيين المغاربة، باستثناء مالك بن نبي، ربما، ليس التوجه الايديولوجي وحده، بل نوع «البضاعة الفكرية» نفسها؛ ونعني بذلك ان كتاباته الفكرية تكاد تخلو من المفاهيم الفلسفية ذات «العيار الثقيل»، بل هي مكتوبة بلغة تكاد تكون عادية؛ وقد يكون ذلك راجعا الى غربة الدكتور عروة عن الفلسفة كما تمارس في الجامعة، بحكم تكوينه العلمي كطبيب، ولكنه راجع ايضا في نظرنا، الى طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بالفلسفة وبالفكر النظري عموما؛ ونعني بذلك انه كان ينظر الى الفكر نظرة عملية بالدرجة الأولى، لا نظرة تأملية وفلسفية[4]؛ وهو ما يبدو في كتاباته الفكرية بشكل عام، بما فيها كتابه عن **الاسلام والعلم** (في طبعته الفرنسية) الذي يعد، الى جانب كتابه الآخر **الاسلام عند مفترق الطرق**، من أهم ماكتب ومن أكثرها عمقا من الناحية النظرية والفلسفية؛ وهو ما يجعلنا نفضل هذا الكتاب كمقدمة وكمدخل الى فكر الدكتور عروة. سنخصص هذه الأسطر، اذن، لقراءة هذا الكتاب من الزاوية التي تهمنا هنا، أي من زاوية العلاقة بين الفلسفة والدين.

1 Ahmed Aroua, L'Islam et la science, Alger, Enal, 1969, 1984.

2 Ahmed Aroua, L'Islam à la croisée des chemins, Alger, Enal, 1969, Dahlab, 1991.

3 Ahmed Aroua, Islam et démocratie, Alger, Maison des livres, 1990.

4 « Je me défends d'être un philosophe, de me situer par rapports aux principales philosophies classiques, ou d'user de la dialectique habituelle des philosophes, à moins de vouloir donner à la philosophie cette signification étymologique primitive, qui est la reherche de la sagesse dans un sens très large, c'est-à-dire l'effort intellectuel que nous déployons pour comprendre la signification des choses en nous-mêmes et autour de nous, et pour en déduire l'idéal de l'être humain dans son evistence individuel, social, moral et spirituelle. » Ahmed Aroua, L'Islam à la croisée des chemins, op. cit., p. 19.

يستهل الدكتور احمد عروة مقدمة كتابه المهم **الاسلام والعلم** بالسؤال الآتي: «لماذا بدا لنا من المهم ان نطرح اليوم مشكلة العلاقة بين الدين والعلم، خصوصا وان العلم كان ينظر إليه دوما في الثقافة التي انجبها الاسلام مكملا ضروريا للإيمان؟».[5] ينطوي سؤال الدكتور عروة في الواقع على مشكلة الكتاب الأساسية، كما انه يومئ بشكل غير مباشر إلى الجواب الذي يشكل حلا للمشكلة التي يطرحها الكتاب. فالمشكلة التي يريد ان ينظر فيها الدكتور عروة هي، اذن، مشكلة العلاقة بين الدين والعلم، وتحديدا، مشكلة العلاقة بين الاسلام والعلم؛ ثم ان هذه المشكلة، كما يُفهم من السؤال، لم تكن مطروحة في الماضي، بل هي مطروحة اليوم، وذلك لانه لم يكن احد من المسلمين في الماضي ينكر هذه العلاقة، بل كان الجميع يسلم بها؛ ومعنى انهم كانوا يسلمون بها، هو ان العلاقة بين الدين والعلم كانت بالنسبة لهم علاقة توافق وتكامل، ولم تكن علاقة تناقض وتعارض[6].

فالمشكلة نشأت اذن، عندنا، عندما تحولت العلاقة بين العلم والدين من علاقة توافق وتكامل الى علاقة تناقض وتعارض، وهو ما يجعلنا نعيش اليوم «أزمة» غير مسبوقة في تاريخنا[7]. ولكن، كيف حدث ذلك؟ لماذا صار العلم عندنا معارضا للدين ومضادا له، بعدما كان موافقا ومناصرا له؟ وجواب الدكتور عروة، هو ان هذا التحول الخطير لم يحدث عندنا أولا، بل حدث في المجتمعات الغربية الحديثة أولا ثم انتقل، بالتبعية، إلينا لاحقا؛ وهو ما يقود الدكتور عروة إلى تحليل ازمة الانسانية الغربية الحديثة والمعاصرة؛ فما هي طبيعة هذه الازمة؟

ينطلق الدكتور عروة، في محاولته تحليل الازمة التي تعيشها الانسانية الغربية المعاصرة، من حاضر المجتمعات الغربية نفسها، هذه المجتمعات التي تعيش ازدهارا وتطورا لم تعرفه المجتمعات الأخرى، بل ولا حتى المجتمعات الغربية نفسها في القرون الماضية.؛ ويرجع هذا الازدهار، بحسب الدكتور عروة، إلى التطور الهائل الذي حدث في مجال العلوم الطبيعية والتكنولوجية في القرون القليلة الأخيرة؛ هذا الازدهار الذي حدث في مجال العلوم الطبيعية جاء كافراز لتطور المجتمعات الغربية نفسها؛ اي ان الثقافة الغربية الحديثة هي التي سمحت بتطور هذا النوع من العلوم، إلى جانب العلوم الانسانية والاجتماعية التي سوف تحدو حدو العلوم الطبيعية، مقتبسة منها ليس المنهج وحده، بل مقتبسة، كذلك، رؤيتها للحقيقة وللعالم.

5 Ahmed Aroua, L'Islam et la science, op. cit., p. 9.

6Ibid., p. 7.

7Ibid., p. 12.

ان ما يلفت انتباهنا هنا هو ان تحليل الدكتور عروة لتقدم العلوم الطبيعية في المجتمعات الغربية خلال القرون الاخيرة لا ينصب، كما يفعل هوسرل وهايدجر، وميشيل فوكو لاحقا (وماكس فيبر قبل ذلك)، على الأسباب الفلسفية والثيولوجية العميقة التي أدت إلى تطور هذا النوع من العلوم دون غيرها، وما صاحبه من سيطرة وتسلط لنوع خاص من العقلانية على الانسانية الغربية، وإنما ينصب تحليله بالدرجة الأولى على نتائج وانعكاسات هذا الازدهار وهذا التطور على مستوى الفكر والدين والأخلاق، وهو ما يجعل مقاربته أقرب إلى تاريخ الأفكار منها إلى التحليل الابستمولوجي؛ ولكن هذا لا يقلل البتة من قيمة التحليل الذي يقدمه الدكتور عروة، لأن ما يهمه، كما أسلفنا، ليست الأفكار في حد ذاتها ومن حيث هي، بل نتائجها العملية القريبة والبعيدة.

وفي هذا السياق، يلاحظ الدكتور عروة أن التطور العلمي والتكنولوجي الهائل كان قد صاحبه، في القرنين الأخيرين، تراجع مهول للدين في المجتمعات الغربية، على مستوى الوعي الفردي كما على مستوى المؤسسات الاجتماعية والسياسية للدولة الغربية الحديثة والمعاصرة[8]. ويرجع الدكتور عروة هذا التراجع المريع للدين إلى جملة من العوامل: من ذلك أن التقدم التكنولوجي الذي شهدته المجتمعات الغربية المعاصرة قد شغل عقول الناس ولم يترك لهم لا الوقت ولا المكان للنظر في الجانب الروحي؛ كما أن الاكتشافات المذهلة في حقل الفيزياء والفيزياء الفلكية والبيولوجيا والسوسيولوجيا قد فرضت معايير جديدة على تفكير الغربيين قلبت تصورات ونظريات تقليدية كانت ترتكز عليها الرؤية الدينية القديمة كما تمثلت في الثيولوجيا والأخلاق المسيحية التقليدية. وفي هذه الظروف، وجد الدين نفسه في انفصام مع الشروط الاجتماعية والثقافية الجديدة، ووجدت الكنيسة نفسها في موضع شك وريبة في نظر المجتمعات التي ولدت في أول الامر من رحمها؛ ولم تنجح المراجعات الجريئة التي قامت بها الكنيسة في القرون الأخيرة في اعادة ادماج هذه الاخيرة في البنية الفكرية والثقافية للمجتمعات الغربية الحديثة[9].

وفي هذا السياق، لا يتردد الدكتور عروة في التأكيد على أن هذه الظاهرة لن تلبث ان تطال المجتمعات الاسلامية نفسها؛ فإذا كان الاسلام قد شكل في بداياته الأولى ثورة عظيمة على المستوى الفكري والاجتماعي، فان الثيولوجيا الاسلامية الكلاسيكية والتطبيقات العملية التي عبرت عنها قد أصابها الترهل ولم تعد اليوم متوافقة مع الشروط الاجتماعية والثقافية الجديدة التي صنعت المجتمعات الاسلامية المعاصرة[10].

8Ibid., p. 10.

9Ibid., pp.10-11.

10Ibid., p. 11.

وهكذا أدى التقدم العلمي والتكنولوجي في المجتمعات المعاصرةإلى تراجع هائل للدين كمرجعية ناظمة لوعي الانسان المعاصر ووجوده، جعل البعض لا يتردد في الإعلان عن نهاية وشيكة للدين وانتصار نهائي للإلحاد[11]. وما يلفت انتباه الدكتور عروة، في هذا السياق، هو هذا الاصرار لدى البعض على وضع الدين في تقابل ضدي مع العلم، بحيث أن أي صعود لأحدهما لابد أن ينتج عنه تراجع للآخر، والعكس بالعكس: «يعتقد هؤلاء أن تقدم العلم سيكون على حساب الايمان الديني، وأن الدين لن يعثر على ملاذ له سوى في المعاقل الاخيرة للجهل والخرافة»[12]؛ وهو ما يعتبره الدكتور عروة اخطر ما نواجهه اليوم: «ان اخطر ما في الأمر هو أن بعض النظريات تطمح اليوم إلى استخدام العلم والمنهج العلمي من اجل رفض الرؤية الدينية للعالم»[13]؛ ولا يتوقف الدكتور عروة عند هذا المستوى من التحليل، بل يذهب خطوة ابعد عندما يصرح برفضه الجريء لهذا الموقف، بعد أن يجرده من الشرعية العلمية التي يتزيا بها، كاشفا عن طبيعته الايديولوجية العميقة: «ان هذا الاصرار على معارضة الفيزيقا والميتافيزيقا، والعقل والايمان يتأتى من الجهل بالرسالة الدينية، ولا يمكن قبوله كبحث منصف ونزيه عن الحقيقة»[14]. نستطيع الآن ان نميط اللثام عن الاتجاه الفكري الذي يناهضه الدكتور احمد عروة ويرى فيه خطرا داهما يتهددنا ويتهدد الانسانية المعاصرة برمتها: انها الفلسفة الماركسية بنزعتها المادية الملحدة.

في هذه الظروف، اذن، وجدت الفلسفة الماركسية الفرصة سانحة من اجل الطعن في شرعية الايمان الديني وفي الحاجة اليه؛ انها لا ترى أن الدين يحوز، أويمكن له أن يحوز على أية شرعية ابستمولوجيةأو أخلاقية، وليست له أية وظيفة اجتماعية أو سياسية؛ وإذا كان يمكن أن تكون للدين وظيفة، فهي بالضرورة سلبية: انها وظيفة «رجعية» و«ظلامية» بشكل اساسي.

ويؤيد الدكتور عروة موقفه من الفلسفة الماركسية بالعودة إلى أدبيات الفلسفة الماركسية نفسها التي جرى نشرها وتوزيعها في ستينيات القرن الماضي على نطاق واسع، والتي يرى أنها حاملة لموقف عدائي من الدين بشكل لا يترك مجالا للمصالحة أو للتعايش معه. ولا يكتفي الدكتور عروة بإيراد النصوص الماركسية التي يظهر فيها عداؤها السافر للدين،أيا كان هذا الدين، بل يذهب أبعد من ذلك، محاولا تفسير هذا الموقف المناهض للدين عند اصحاب هذه الفلسفة. فما الذي يجعل الفلسفة الماركسية ترى في الدين شرا ليس بعده شر؟

وجواب الدكتور عروة، هو أن السبب في ذلك هو أن الفلسفة الماركسية أقامت تصورها للدين على أصلين أساسيين، يتعلق الأول منهما بالمستوى النظري والابستمولوجي، ويتعلق

[11] *Ibid.*
[12] *Ibid*., p.9-10.
[13] *Ibid*., p. 9.
[14] *Ibid*., p. 10.

الثاني بالمستوى العملي: فأما على المستوى النظري والابستمولوجي، فهي ترجع الدين إلى المخيلة، لا إلى العقل؛ وأما على المستوى العملي والسياسي، فهي ترى في الدين استسلاما وخنوعا. ولما كان الدين ناشئا من المخيلة، لا من العقل، كان مجرد وهم وخرافة؛ ولما كان استسلاما وخضوعا للأمر الواقع، كان «رجعية» و«عمالة» للفئات «الاقطاعية» و«البورجوازيات المستغلة»[15].

ولما كان الدين عند انصار الفلسفة الماركسية ناشئا من المخيلة، لا من العقل، قادهم هذا الأصل إلى القول بتعارض أصلي وأساسي بين الدين والعلم: «تؤكد النزعة الماركسية، يقول الدكتور عروة، على أن الوظيفة الرجعية للدين تكمن في عدائه الشديد للعلم وللرؤية العلمية للعالم»[16]. علينا بعد ذلك أن نسأل أنفسنا: هل صحيح أن عداوة الفلسفة الماركسية للدين متأتية حقا من كونه معاديا بشكل أساسي «للعلم وللرؤية العلمية للعالم»؟ وجواب الدكتور عروة، هو أن الموقف الماركسي المناهض للدين ليس ناتجا عن دفاع حقيقي ونزيه عن العلم، بل هو ناتج عن تصور وعن تحليل خاطئ للدين. وبعبارة أخرى: إن الموقف الماركسي من الدين هو موقف فلسفي وإيديولوجي، وليس موقفا علميا وموضوعيا.
هكذا نفهم، ولو بشكل جزئي، السبب الذي يجعل الدكتور عروة يتصدى، من خلال كتاب وضعه في الأساس لإثبات التوافق والتكامل بين الاسلام والعلم، للدخول في سجال مع انصار الفلسفة الماركسية؛ ولكن هذا التفسير، رغم وجاهته، يظل نظريا بحتا ولا يكفي البتة.

في الواقع، إن سجال الدكتور عروة مع الفلسفة الماركسية لم يكن سجالا مع طرف خارجي، وإنما كان سجالا مع طرف داخلي، ونعني به التيار اليساري الذي كان له حضور قوي آنذاك في الجزائر وفي البلدان العربية والاسلامية بشكل عام: «لكن، يبدو أن الازمة التي ضربت المجتمعات الغربية قد وصلت إلى ديار الاسلام، وذلك أن بعض الشباب المثقف الذي تعوزه المعرفة الصحيحة بحقيقة الفلسفة المادية، كما بحقيقة الاسلام نفسه، يعتقد اليوم أنه قد تحرر من ربقة الدين، وصار ينظر إلى الالحاد على أنه تحرر»[17]. ومع رواج أدبيات الفلسفة الماركسية في أوساط الشباب الجامعي والمثقف، آنذاك، راج معها، بالتالي، الموقف الماركسي المناهض للدين بسبب العداء الأصلي لهذا الأخير «للعلم وللرؤية العلمية للعالم»: «إن هذا الفصل الذي صار أمرا واقعا في المجتمعات الغربية الحديثة بين العلم والإيمان، يبدو أنه صار، يوما بعد يوم، مقبولا عند فئة من النخب المثقفة في البلاد المسلمة؛ هذه الفئة التي تريد ان تفصل الاسلام عن البنية التحتية التي تشكل القاعدة المادية التي من دونها لا يكون للاسلام أي وجود مادي»[18].

[15] *Ibid*.., pp. 11-12.
[16] I*bid*., p. 12.
[17] *Ibid*., p. 12-13.
[18] I*bid*., p. 13.

هكذا نفهم، اذن، الأسباب العميقة التي انتهضت المثقف والمفكر احمد عروة للرد على الفلسفة الماركسية في السنوات الأولى التي أعقبت الاستقلال مباشرة: ينبغي الرد على هذه الفلسفة التي تفصل بين العلم والدين، لأنها تفصل بين العقل والايمان وبين المادة والروح؛ وذلك أن هذا الفصل يؤدي، في النهاية،إلى تقويض «الوحدة الايديولوجية للاسلام»[19]. فالإسلام، كما يؤكد الدكتور عروة، «ظهر منذ البداية كايديولوجيا شاملة، لا تفصل الزمني عن الروحي، ولا الفرد عن المجتمع، ولا العلم عن الايمان»[20]؛ وان أية محاولة لتفكيك هذه «الوحدة الايديولوجية»، التي تمثل أخص خصائص الاسلام، ستقودنا الى أزمة عميقة من شأنها أن تزعزع فكرنا ووعينا بأنفسنا وبالعالم من حولنا وأن تهدد وجودنا نفسه.

وهكذا، اذن، بعد أن حلل المبادئ والأصول الفلسفية والإيديولوجية التي تتحكم في التصور الماركسي للدين، ينتقل الدكتور عروة، في خطوة لاحقة، إلى بناء تصور مغاير، مستندا بشكل أساسي إلى الرؤية الاسلامية للعلم؛ هذه الرؤية التي لاتفصل العلم عن الدين، ولا الدين عن العلم، بل تقيم بينهما توافقا وتكاملا، لأن مصدرهما واحد: «ان وحدة العلم والإيمان تجد أصلها في وحدة المصدر، وهو الله، وذلك لأن العقل مخلوق من الله»[21]. لكن القول بالوحدة لا يمنع الدكتور عروة من القول باختلاف أساسي بين المعرفة الدينية والمعرفة العلمية، غير أن هذا الاختلاف هو اختلاف تكامل، لا اختلاف تعارض وتناقض. وهذا الاختلاف ناشئ من كون المعرفة الدينية هي معرفة الهية متعالية، في حين أن المعرفة العلمية هي معرفة انسانية وضعية؛ ولذلك فإن أي انكفاء على المعرفة العلمية وحدها من شأنه أن يقطعنا عن المعرفة المتعالية التي منها نستمد معنى وغاية لوجودنا؛ وان أي اقصاء لهذه المعرفة يؤدي بالضرورة إلى اقصاء الاسئلة الأساسية والحاسمة بالنسبة لنا، تلك الاسئلة المتعلقة بمعنى وجودنا، أي أنه يؤدي إلى اقصاء الاسئلة التي تهمنا فعلا، تلك المتعلقة بسلوكنا مع بعضنا البعض ومع محيطنا الانساني والطبيعي، لأن المعرفة العلمية لا تستطيع أن تسعفنا في هذا المجال. وهو ما يقودنا إلى لقاء مع هوسرل وهايدجر في نقدهما للعقلانية الغربية الحديثة المتمركزة حول المعرفة الوضعية.

**قائمة المصادر والمراجع:**


1- Ahmed Aroua, *L'Islam et la science*, Alger, Enal, 1969, 1984.
2- Ahmed Aroua, *L'Islam à la croisée des chemins*, Alger, Enal, 1969, Dahlab, 1991.
3- Ahmed Aroua, *Islam et démocratie*, Alger, Maison des livres, 1990.


[19] *Ibid*., p. 13.
[20] *Ibid.*
[21] *Ibid*., p. 17.